ملكية الوطن "مصرى أنا"

د. مصطفى حجازي

اقشنا فى دراسة سابقة "إشكالية الهوية" فى منظومة الاصلاح و النهضة من حيث تحديد الأولى من أبناء أى مجتمع – وهم مفكروه - بتبنى تلك القضية و العمل على حسمها قبل الشروع فى أى عمل إصلاحى و إلا صار هذا العمل منبتا عن مجتمعه ، باعثا على تغريبه بدلا من نهضته و تبوأه لدوره الحضارى الانسانى بين الأمم.

وكما قلنا أن من المُستغرب أن السؤال لم يصبح سؤالا عن كُنه الهويةِ أو ماهيتها (ما هى هويتنا؟) التى ينبغى أن يتأسس عليها الفعل الاصلاحى، بل صار نقاشا حول جدوى حسم قضية الهوية بالأساس شأنها شأن قضايا فكرية مبدأية تاهت فى زخم غواية الحركة فى مجتمعاتنا العربية و مجتمعنا المصرى على وجه الخصوص.

و عند تحليل واقع "حالة الإصلاح" فى المجتمع المصرى و الذى على إثره يتم تحديد مستوى المأمول للواقع تغييرا و للنهضة منطلقا نجد أمامنا واقع مؤداه أن هناك "طنين" لاينقطع حول قضية الإصلاح، ترادفه حالة غير مسبوقة من تبديد الموارد و سوء الإدارة و إدمان لحالة الأزمة خلقا وممارسة. كذلك نرى غياب كامل لمعنى الأهلية و تصحر فى الكفاءة وإنحسار للجدية. سيطر الهزل و العبثية (الفهلوة بالتعبير الدارج) على كل أمل و عمل حتى صارت الجدية ممجوجة

و أضحت فقط قناعا يضعه مدعى القيام على شأن الإصلاح حتى لاتبدو فجاجة العورات و العوار.

وإذا جزمنا أن كثير من القائمين على الفعل الإصلاحى فى المجتمع المصرى – دون تشكك فى إخلاصهم - استمرئوا البقاء فما أسميه مرحلة الانفعال و التعبئة بقيمة الاصلاح و الأمل فيه مع تغييبهم الرغبة و المقدرة على الوفاء باستحقاقات التحرك قدما نحو انجاز "حقيقى" ، نرى أن ما ينقص الحالة الإصلاحية المصرية -بحق- هو قاعدة فكرية مقاصدية تتبلور فلسفتها فى التوجه نحو إنجاز الحلول الواجبة.

أما تلك القاعدة الفكرية الحركية المسيطرة على الواقع الإصلاحى الحالى و الموجهة للانفعال بالقضايا بغية التعبئة النفسية، ما أثمرت إلا حركة ممسرحة منبتة عن أى انجاز يرجى. و أنتجت زخما فقد الحلم فيه معناه حين اختزل الى لسان مقال أجوف يرجى به الانتشار الإعلامى و يلازم قائله لسان حال من الانسحاق - و الإقرار بأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان - حقيقة يخفيها فى ثنايا نفسه تكريسا لحالة من النفاق المجتمعى و ابتغاء الحركة دون الإنجاز. و الحركة من منطلق هذه القاعدة الفكرية الفاسدة مقصدا فى ذاتها.

أما تلك القاعدة الفكرية المقاصدية - المرجوة - (النسق المعرفى) فهى تلك القادرة على الانتقال بمعانى الاصلاح و النهضة للمجتمع المصرى من الإنفعال و التعبئة نحو الحلم الواجب و منه إلى التناغم و التوافق حول الحلم ثم إلى التواصل الممنهج و الفعل المتآزر المحكوم بمعايير القياس و الاحتساب و التصحيح و مواجهة التحديات منتهيا الى المقاصد العليا و انجازها.

و لهذا النسق المعرفى (القاعدة الفكرية المصرية) المأمول ثوابته و من أولها ثابت يسمى "ملكية الوطن ". و هو ثابت متلازم مع الهوية و منبثقا عنها يؤثر فيها و تيأثر بها.

فالهوية كما نراها هى مؤسس المرجعيات و منشأ الشعور بملكية الفكرة و المجتمع و الوطن كله. و إحساس الملكية هو منشأ القدرة على الحلم و المحقق لممارسة مهارة الحلم و مهارة الإنجاز.

و مانحن بصدد تحليله فى هذا المقال هو أين نحن فى مصر من هذا الثابت ...ملكية الوطن.

All copy rights and Intellectual Property rights for the methodology and concepts used in this are reserved by SQUARE Institute for Strategic Thinking, ACME Corp-EMENA ® Copyright © 2008

أولا دعونا نقرر أننا لانعنى الملكية المادية لأصول فى وطن ما و لكن ما نبحثة هو الشعور بملكية الوطن بمعنى ملكية حلمى الخاص فى سياق حلمه العام.

فما نقصده هو ملكية تاريخه و جغرافيته، ثقافته و تراكمه الحضارى، الحق فى حلمه و الحق فى العمل على تحقيق هذا الحلم، ملكية القرار فى أدوات ادارته و توجيه دفة أموره. ملكية تحتم على صاحبها أن يفخر بما يملك و أن يغار عليه و أن يذود عنه بكل ماأوتى من طاقة. ملكية تؤثم صاحبها اذا تهاون فيما يملك أو ضيعه.

فكما أن من يملك أصلا ماديا يؤثم عقلا و عرفا و شرعا اذا ضيع ما يملك، فكذلك من يملك بالحلم وطنا لايعذر إذا تنازل عما يملك طوعا أو كرها.

و فى حالة تطواف سريع لما آل اليه هذا الثابت فى غالب المجتمع سأروى تجربة شخصية متكررة فى لقاءاتى مع مصريين مهمومين بقضايا إصلاح المجتمع فى مراحل عمرية مختلفة يغلب عليهم العناصر الشابة، جميعهم مشاركون فى محاولات متعددة لإصلاح مجتمعهم و من مداخل متعددة، غالب عليها العمل الخيرى (و هو ما أسميه أنا الإصلاح الإغاثى) و إن ادعوا أنهم يعملون على تنمية المجتمع و ليس فقط اصلاحه. فى كل هذه اللقاءات أوجه سؤالا يطلب من الحضور تحليل عبارة "أنا مواطن مصرى". و بالطبع يمضى تحليل الكلمتين الأول "أنا" و "مواطن" دون عناء و لكن عند إضافة مصرى لكلمة مواطن و الأهم اضافة مقتضى المواطنة الأول و هو ملكية هذا الوطن هنا تكمن المفارقة بل قل الانتكاسة حيث يرفض جميعهم فى أغلب الاحوال الإقرار حتى لأنفسهم بأنهم يملكون هذا الوطن يقينا. و الغريب أنهم يرون أن هذا المعنى يستقيم للعبارة فى حق المواطن الأمريكى أو الأوروبى أو الغربى عند اضافة اسم وطنه لعبارة "أنا مواطن ..." و لكنها لا تستقيم فى حقهم.

و التبرير الدائم لهذا الرفض أن الحقائق المكرسة من خلال الأنظمة الحاكمة و الاشارات المعبرة عن تلك الحقائق تنفى بوضوح أى دلائل لتلك الملكية. و رغم صدق المبرر المسوق الا أننا يلزمنا أن نسأل هل تلك الحجج الحقيقية أو غيرها كفيلة بأن تسبغ على التنازل عن ملكية الوطن و عدم الشعور اليقينى بها و الإقرار بها أى عقلانية أو شرعية أو حتى تعاطف.

و لتوضيح هذا المعنى كنت دائما ما أردف هذا الحوار بمثال تبسيطى لكل من هؤلاء المشاركون الإصلاحيون مؤداه ما يلى " هل إذا تسبب إقرارك بملكيتك لمنزلك الذى تقطن به فى إنزال عقاب بدنى بك من طرف ما يرغب فى اغتصاب بعض أو كل حقك فيه، فهل يكون ذلك سبب كاف لأن تقر فى قرارة نفسك بأنه ليس بيتك" تكون المفارقة هو استهجان الفكرة و لو نظريا. بل و نذهب الى أنه لا يملك أحد منهم حتى محاولة تسويغ ذلك لنفسه أو من حوله.

كذلك أمر العلاقة مع ملكية الوطن هو أمر غير قابل للتنازل عنه مهما صعبت مقتضياته أو أورثت من عنت. و يكون ما نحتاج أن نعلمه جميعا أننا نملك أن نمارس ملكيتنا لوطننا فى حدود القدرة و التى هى مناط تكليفنا. و لكن القول بأن هناك من الأسباب ما يكفينى لكى أنسحب من القيام على استحقاقات ملكيتى للوطن مع ادعاء الغيرة عليه بل و محاولة الانغماس فما يسمى محاولات لاصلاح واقعة فهذا عين الادعاء.

و عودة الى الهوية فإن غياب ثابت ملكية الوطن تتواضع معه القدرة على الحلم و يصبح الحديث عنها أجوف و زائف. و كذلك تتضاءل معها الحاجة الى وجود مرجعيات فكر و فعل حيث يصير الواقع كله زائف ممسرح غير معنى بأى نتائج أو انجاز، فالتواجد و التزاحم ظهورا بغرض السيطرة على أكبر مساحة من مشهد الحركة الإصلاحية فى المجتمع و من ثم يصبح هاجس حسم الهوية و الاحتكام اليها غير قائم أو ملح كما ينبغى على كل آمل فى اصلاح أو نهضة. أى ينحسر فى العقل الجمعى للمجتمع وجوب الوقوف على هويته بل و تتعالى الأصوات التى تدعو الى عولمة الهوية و ما شابه ذلك من التسطيح.

و حين يدور السؤال ملحا عن أين ذهب انتماء المصريين لوطنهم و كأننا لانعلم بأن الانتماء مآل منطلقه الهوية و أنه عطاء لوطن ممن ملكه. يلزمنا إذا أن نعلم أن الانتماء غاب حين غيبت شواهد ملكية الوطن عن أبنائه. فكما أسلفنا إذا كان الانتماء مآل فمنطلقه الهوية و إن كان الانتماء عطاء فهى عطاء من ملك على أساس هويته. و إذا أردنا

All copy rights and Intellectual Property rights for the methodology and concepts used in this are reserved by SQUARE Institute for Strategic Thinking, ACME Corp-EMENA ® Copyright © 2008

تفسيرات أخرى من نوع نظرية المؤامرة و التأثير الاستعمارى على العقل المصرى و ما إلى ذلك فنحن نريد أن ندور فى حلقات مفرغة تبرئ نخبة المجتمع الحاكمة و المثقفة و مفكريه من مسئولياتهم و تريح الضمائر و كفى.

و أخيرا لنا أن نقبل من أنفسنا و ممن حولنا أن نعدد أسباب الاحساس بالغربة عن الوطن و فيه و لكن ليس لنا أن نغرب فى أنفسنا ما لانملك تغريبه و هو حقيقة ملكيتنا له. فملكيتنا له رابطة شأنها شأن رابطة الدم فى الأسرة الواحدة فإذا قبلنا من أحدنا أن يضيع من يعول - و "بحسبه من الإثم ذلك" - كان لنا أن نقبل أن نؤسس حركتنا فى المجتمع على خلفية عدم الايمان باننا نملك الوطن قدر ما يملكنا.

فمصر ياسادة هى قدر و قدر لكل منا، ألم و أمل، حق وواجب، هم و حلم، منطلق ووجهة.

All copy rights and Intellectual Property rights for the methodology and concepts used in this are reserved by SQUARE Institute for Strategic Thinking, ACME Corp-EMENA ® Copyright © 2008